مُفرَدَاتُ اللّغَةِ العَربيّةِ
مَنابع دِرَاسَتِهَا وَتَطوّرهَا

الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

مفردات اللغة العربية والحضارة :

اللغة اداة التعبير عن المحسوسات والافكار التي يدركها المجتمع وافراده، ويتطلب انتشارها ان تكون مفهومة عند المتكلم بها والسامع لها ، ونطاقها يمتد الىحدود المعرفة عندهما، ويختلف مدىهذا الامتداد تبعالسعةالثقافةوالادراك، وهو اغنى عند واسعي الادراك • وللافراد مكانة متميزة في تقرير مدى سعة المفردات والتراكيب المستعملة ، والحس المرهف والفكر العميق يقدمان مادة للغة ، وهما يتطلبان مفردات تعبر عن المحسوسات والافكار •

وتسود في كل مجتمع مفردات عامة يدركها سواد المجتمع ، غير انه بجانب هذه اللغة العامة توجد عادة مفردات محصورة بأفراد، يفهمها ويستعملها عدد قليل من الناس ، منوعة في اللفظ او في اسباغ معنى جديد على الكلمات العامة، أو بابداع تسميات خاصة ، وهي تختلف في مدى شيوعها بين الناس ، ولكنها من حيث العموم أقل انتشارا بين عامة الناس،وانما يكثر استعمالها في اوساط المثقفين •

وللاحوال المادية والثقافية دور كبير في تقرير مدى سعة اللغة وماهيتها ، فالبيئة البسيطة التي لاتحتوي الا مظاهر حضارية محدودة تقتصر حاجتها على القليل من المفردات للتعبير عن تلك المظاهر ، غير ان توسع

مظاهر الحضارة وتعدد جوانبها ورقي المستوى الفكري العام عند الجميــع أو الخاص في أفراد محدودين يرافقــه عــادة توسع في المفردات المستعملة .

ويمتد التنوع الى طريقة اللفظ والاصوات من حيث التفخيم والترقيق والحركات التي لها أهمية كبيرة في اللغة العربية من حيث اثرها في تقرير معاني الكلمات وخاصة في أواخر الكلمات .

ذكرنا ان اللغة الفاظ صوتية يعبر بها عن الملموســات والمحسوســات والمدركات وعن الافكار والاراء والاعمال العقلية وأساليبها ، ومع ان أساسها شخصي قائم على الفرد الذي يستعملها الا انها تتطلب انتشارا بين الناس ليتفقوا على معرفة دلالاتها ، ويعتمد هذا على مدى سعة الادراك الحسي والعقلي للمتكلم والمجتمع ، ومع ان للافذاذ من الافراد صفة التميز بنوع المــفردات وتعددها ، الا انها من حيث العموم تعبر عن احوال المجتمع ومستواه وتوجهاته ، ولن يكتب لها البقاء والخلود الا اذا كانت مفهومة عند الناس او اكثرهم .

وعند ظهور الاسلام كانت اللغة العربية الفصحى مثبتة ومستقرة في شبه وفي جزيرة العرب واطرافها ، وتجلت هذه اللغة في القرآن الكريم والشعر وفي عدد من الامثال والأقوال التي وصلت الينا ، وفي القرآن آيات تذكر بفخر انه نزل «بلسان عربي مبين» «قرآنا عربيا غير ذي عوج» ، وتتضمن اصالة عروبته الالفاظ وقواعد التركيب والاصوات . ويدل وصف القرآن الكريم لغته بالاستقامة والوضوح على ان هذه اللغة كانت عامة عند العرب ، سائدة فيهم ، ومما يؤيد ذلك انها كانت لغة الشعر الذي نقل الينا عن تلك الحقبة وما قبلها ، ومن المؤكد انها كانت سائدة قبل ظهور الاسلام باكثر من قرن حيــث كان امرؤ القيس ينظم فيها ؛ ولابد انها كانت قائمة منذ أقدم من ذلك التاريخ ، اذ لايعقل ان تظهر وتعم فجأة ، غير ان قلة الوثائق المكتشفة المكتوبة بهذه اللغة لاتمكننــا من تحديد مدى قدمها الذي لابد ان يكون موغلا في القدم ، وليس كمــا

يدعي البعض انه احدث من اللغات المقاربة له مما توفرت عنها وثائق تعين على تحديد زمن انتشارها .

ان عمومية اللغة الفصحى بمفرداتها الاساسية وتلفظها وقواعدها لم يمنع قيام لهجات متعددة تتميز بتخصص في استعمال الفاظ او طريقة نطقها او اتباع طرق خاصة في القواعد كصيغ الجموع والتأنيث والتذكير والاضداد وأمثال ذلك مما فصلت فيه كتب النحو والصرف واشارت الى تنوعه ، ولكنها أشارت الى ان ذلك التنوع يرجع الى ان كل صيغة من هذه الصيغ المنوعة مردّه الى استعمالات محلية مستقرة .

اشارت الدراسات القديمة والحديثة في اللهجات الى عدد من الاختلافات المحلية في التلفظ ومكان انتشار كل منها ، أي العشائر التي استعملت كلا منها وأشارت كتب القراءات الى امتداد هذا التنوع في قراءة القرآن . وما ذكروه مهم ولكن يصعب القول بانه مستوعب .

العربية في العهود القديمة :

اكتشفت في الأطراف الشمالية من الجزيرة وفي اليمن نقوش فيها مفردات تخالف في صيغ لفظها وبعض قواعدها العربية الفصحى المعروفة ، وكافة هذه المكتشفات هي نقوش على الحجر ، واكثرها مكون من عبارات او اسطر قليلة مما كتبه الامراء والملوك او من شواهد القبور وتخليد الهدايا للمعابد ، ونقشها يدل على انها كانت مستعملة في زمن كتابتها ، ولكن لم تجر دراسة عن مدى انتشار استعمال كل منها ، فهل كانت لغة «رسمية» مقصورة على بلاط الامراء ورجال الدين ، أم انها كانت عامة عند «الشعب» . وتقدم الاحوال اللغوية في اليمن اجابة عن بعض هذه التساؤلات ، فقد اكتشفت فيه نقوش كثيرة مكتوبة بخط المسند وبلغة فيها كثير من الاختلافات في مفرداتها وقواعدها عن اللغة العربية الفصحى ، وبعض هذه النقوش كنقش أبرهة يرجع الى زمن

قريب جدا من ظهور الاسلام ، غير ان الصورة العامة لتطور الحضارة العربية يظهر ان أهل اليمن كانوا عند ظهور الاسلام يستعملون اللغة العربية الفصحى التي نزل فيها القرآن ونظم فيها الشعر ، اذ مع كثرة اليمانيين الذين استقروا بعد الفتوح في الكوفة والشام والفسطاط خاصة ، وولى عدد منهم مناصب ادارية وقيادات عسكرية وكان فيهم اكثر القضاة ، فانه لاتوجد اشـارة الى اختلاف لغتهم عن لغة القرآن الفصحى ، وكل هذا يدل على ان العربية كمـا تتجلى في القرآن كانت سائدة عند ظهور الاسلام وقبله في اليمن، وان لغـة النقوش كانت ضيقة الانتشار ، حتى ان الهمداني أشار الى وجودها في مناطق محدودة من جنوب شرقي اليمن ، ووصف أهلها ان « كلامهم غتم » ، وأشار في الاكليل الى قلة من كان يعرف قراءة المسند ؛ وكل هذا يظهر ان لغةالنقوش كانت « لغة رسمية » محصورة في بعض الاوساط الحاكمة ، ولم تكن عـامة عند الناس •

مفردات القرآن الكريم :

ان القرآن الكريم هو أول معتمد واسع وصلنا عن لغة العرب ، ومـع انه منزل لفظا ومعنى بالوحي من الله تعالى ، الا انه نزل باللغة التي يفهمها القوم الذين نزل فيهم ، «وما ارسلنا من رسول الا بلسـان قومـه ليبـين لهم » (ابراهيم ٤) « لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبـين » (النحل ١٠٣) « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (مريم٩٧) «فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» (الدخان٥٨)، ولاريب في ان الاسلام يدعو الى العمل والتفكير والتعرف ، وكان عماد الدعوة الاسلامية في القرآن الكريم قائماً على الفكر ، يدعو اليه في مخاطبة الناس ، ويستحثهم في استجابـاتهم ، فاكثر مفرداته تعبر عن أحوال الحياة الفكرية وتوجهاتهـا والنفس الانسانية وتطوراتها ، ففيه كثير من الآيات والتعابير عن الذات الالهية

وصفاتها وأعمالها، وعن إعمال الفكر والعقل، وأساليب المعرفةمن وحي والهام، وبصر، ونظر، وتعقل، وتفكر، وادراك ، وجدل، وفيه عن الروح والنفس وخلجاتها ووساوسها وظنونها وشكوكها ويقينها، ويتكرر ذكرالتعابير المتعلقة بهذه الأمور بصورة تظهر ان مفاهيمها كانت واضحة في اذهانهم مألوفة عندهم، وهي تعبر عن ثقافة فكرية عالية المستوى ، يعززها تقدير كبير للفكر والمعرفة يتجلى في تردد كلمة الحكمة ومشتقاتها (٩١١ مرة) كثير منها صفة لله تعالى فهو العزيز الحكيم (٤٦) والعليم الحكيم (٣٧) والخبير الحكيم (٤) وذكر القرآن الحكمة وأشار الى مكانتها المرموقة « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » (البقرة ٢٦٩) •

وترددت بكثرة كلمة «العلم» ومشتقاتها في القرآن ، فذكر الفعل «علم» في ٤٢٧ آية منها ١٣٨ آية «علم الله» وذكر في وصفه تعالى «عليم» في ١٥٧ آية و «اعلم» في ٤٨ آية ، «عالم الغيب» في ثلاث عشرة آية « علاّم » في أربع آيات •

وأقر للعلم مرتبة عالية توازي الايمان « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » (المجادلة ١١) •

وفي القرآن الكريم عدد كبير من المفردات التي تعبر عن أحوال المجتمعات ونظمها وتطورها ، وكثير من هذه المفردات تكرر ذكرها فيه وهي في كل مكان تعبر عن زمن خاص يختلف عن معناه في مكان آخر ، ومن أوضح الامثلة على ذلك كلمة «الامة» التي يدل سياق نزولها على تعدد معانيها ، وقد الفت في ذلك كتب متعددة اكثرها بعنوان «الوجوه والنظائر» كما ان بعض الكلمات وردت بمعنى خاص يختلف عما صار مفهومه فيما بعد، فكلمة «شهيد» ذكرت بصيغة المفرد في خمسة وثلاثين موضعا بمعنى شاهد ، وذكرت مرة بصيغة الجمع بمعنى غير محدد المعالم «والشهداء والصديقين» ، ولم تذكر صفة لمن يقتل في سبيل الله ، الذي ورد ذكره في عدة آيات ، كلما

بأن تعبيرٌ «الشهيد» خص في الأزمنة التالية بمعنى «الذي يقتل في سبيل الله»؛ وكلمة «سلطان» ذكرت في أربعين موضعا اكثرها بمعنى « برهان » وقليل جدا منها بمعنى «صاحب السلطة» وهو المعنى الذي ساد فيما بعد من الكتب وخاصة كتب التاريخ والفقه •

وبعض الكلمات يتكرر ذكر كل منها بمعنى واحد ، الا في مكان واحد يكون لها فيه معنى مخالف للمعنى المكرر مثل كلمة اسف ، وروح ، وبحسب، وبعد ، وجثيا ، وحسبان (١) •

ثم ان عددا غير قليل من الكلمات القرآنية لم يكن معناها مألوفا في القرن الثاني الهجري ، فاعتبرت « غريبة » والفت كتب كثيرة في « غريب القرآن» رصدت هذه الكلمات ، وأوضحت معناها ، والراجح ان معناها كان معروفا في اوساط المسلمين ابان نزولها ولم تكن سائدة الاستعمال في الجزيرة، ولمعانيها مفردات اخرى ، فقل استعمالها وجهل عند العـموم معناها ، فألف المختصون كتب « غريب القرآن »لتوضيح معناها باستعمال المفـردات الســائدة في زمنهم (٢) •

ذكرنا ان القرآن الكريم عربي بمفرداته وتلفظه وقواعده ، وانه نـــزل « بلسان عربي مبين » « قرآنا عربيا غير ذي عوج » وان مفرداته تعبر عن اشياء مادية محسوسة ، وعن نظم مطبقة ، وافكار قد لم تكن مقبولة عن المشركين ، ولكنها معروفة عندهم ، وبعضها ذات معان دقيقة يتطلب فهمهمــا الصحيـــح مستوى فكريا خاصا ، وهذا من مصادر اعجاز القرآن •

كان فهم معاني مفردات القرآن الكريم الموضوع الرئيسي الذي عنى به علماء القرآن الاولون ، وقد اسهم فيه العلماء المتبحرون فــي اللغة والفكر ،

---

(١) الافراد في القرآن ٣٣٠ .

(٢) انظر قائمة فيها من كتاب « معجم المعاجم » لاحمد الشرقاوي اقبال . وانظر ايضا « معجم مصنفات القرآن الكريم » للدكتور علي شواح اسحاق.

وكان من ابرز ميادين الحركة الفكرية وخاصة في صدر الاسلام ، كما كان من اهم الميادين التي عنى بها العلماء في الحجاز اولا ثم امتد الى البلاد الاخرى ، فلما بدأ تأليف الكتب دون عـدد من العلماء كتبا خاصة في توضيـح معاني مفردات القرآن وآياته ، كانت العماد الاول لمادة كتب التفسير .

وكان القرآن الكريم الموضوع الاساس الذي تدارسه العرب ، فكانت آياته تقرأ في الصلوات ، وأفكاره تدرس ، ومفرداته تتداول ، وبسبب اعتماد العرب فـي قراءته على السماع دون التدوين فقـد ظهرت في تلفظ كلماته ، واحيانا في تثبيتها بعض الاختلافات ، وكانت منذ زمن مبكر مثار جدل كاد ان يصبح مهددا ، فتداركه الخليفة عثمان بن عفان وثبت له نصا واحدا في المفردات والتلفظ والتنظيم ، وساد مصحف عثمان ، ولكن ذلك لم يمنع اصرار البعض على قراءات خاصة مخالفة للعموم ، تمسك بهـا علماء متعمقـون وتـابعهم تلامذتهم ، فكانت موضوعا عنى البعض في دراسته ، فألفوا كتبا كثيرة في « قراءات القرآن »[٣] يتبين من دراستها ان الاختلافات ظلت محدودة في طريقة تلفظ حروف العلة وعدد محدود من الكلمات .

ولما كان القرآن الكريم يهتم بالدرجة الاولى بالعقائد واساليب المعرفة الفكرية والنظم السياسية والاجتماعية المنوعة التي قامت عند شعوب متعددة وبعضها قديمة ، وكثير من هذه الامور لم تكن مألوفـة في عدد مـن ارجاء الجزيرة ، فقد تمت دراسات لشرح مدلول مفرداتها ومعانيها ، وكان لاهل الحجاز القدح المعلى ، وبرز فيهم مختصون كونوا العدد الاكبر من المفسرين الاولين ، وعرضوا في ذلك خبراتهم ومعرفتهم القائمة على تتبعاتهم وعلـى ماسمعوه مباشرة او بالواسطة من الرسول (ص) .

---

(٣) بالاضافة الى المصدرين السابقين ، انظر جردا لهـا في كتـاب « معجم القراءات القرآنية » لعبد العال سالم مكرم واحمد مختار عمر .

المفردات العامة عند العرب :

ان المصدر الرئيسي الثاني لمعرفتنا اللغة العربية هي الروايات والمدونات التي سجلها العلماء ، وخاصة في العراق منذ القرن الثاني، وعنوا بصورة خاصة بما كان متداولا عند العشائر البدوية في المناطق الصحراوية ، ومن المعلوم ان الجيوش الاسلامية التي قهرت الفرس والروم ووسعت الدولة ومدتها في بلاد الشرق الاوسط ، كان قوامها العرب من كافة ارجاء الجزيرة العربية ومناطقها ، ومن مختلف العشائر ، وقد استقروا في الامصار الرئيسة التي كان في كل منها عشائر منوعة من مختلف مناطق الجزيرة ، ففي البصرة كان المقاتلة من ازد عمان ، وعبد القيس وحنيفة من البحرين وعشائر بكر واطراف العراق الجنوبية ، وتميم من هضبة نجد ، كما كان فيها عدد من عدة عشائر من الحجاز .

واستوطن في الكوفة عشائر متعددة من اليمن (خثعم ، وهمدان ، وحمير ، وكندة، وحضرموت) ومن عشائر الحجاز ونجد عامر بن صعصعة وفزارة وأسد ، وطي ، وتميم .

وفي بلاد الشام عشائر متعددة من الحجاز ، واليمن ، وبادية الشام (لخم وجذام وكلب) .

ومثل هذه العشائر استوطن رجالها في الفسطاط ايضا .

وكانت العربية لغة هذه العشائر كافة ، ولأبد ان كل عشيرة احتفظت بلهجاتها الخاصة التي تتجلى في نطق حروف العلة والصامتة وفي اختلاف بعض الكلمات الدالة على الشيء الواحد ، ولم تسجل اخبار عن تباين واسع وعميق في هذه اللهجات ، وكانت الفصحى عامة الاستعمال يعززها القرآن الكريم والشعر الذى ظل ينظم بها .

تابع العرب بعد استقرارهم في الامصار الاهتمام بالاداب والشعر وظلوا يتناقلون الاخبار ويروون الشعر ، وظهر فيهم شعراء حرصوا على متابعة

التقاليد القديمة في أوزان الشعر وقوافيه ، وادخلوا صورا جديدة وعبروا عن عواطف جديدة ، وكانت مفرداتهم عربية لاتختلف عن التراث الصحراوي في ذلك ، وتظهر كثرة ماروي منه مدى متابعة التراث ، وان كان قد ازداد فيه التأكيد على مفردات وصور معينة ، واهمال استعمال بعض ماكان قديما •

وتابع العرب اهتمامهم بتناقل الاخبار ورواية « الكلم الطيب » من الحوادث والاقوال المأثورة والامثال ، وحرصوا على نقل بعضها بالنص ، أي الحفاظ على مفرداتها القديمة •

ذكرنا ان عرب الامصار جاؤوا من مختلف ارجاء الجزيرة العربية وكان اكثرهم من عشائر البادية ، غير ان فيهم عدداً من اهل الريف والمدن ، وأدى استقرارهم وتمازجهم الى ازدهار حضاري زاد من قوته استقرار الحياة المدنية وتطور الحياة الاجتماعية ونشاط الحياة الاقتصادية ، وتزايد الاعاجم في هذه الامصار وادخالهم مفردات اعجمية جديدة ، وتطويرهم الفاظ بعض الكلمات ، وادخال مفاهيم جديدة للالفاظ العربية ، واهمالهم استعمال عدد من الكلمات العربية ، وأدى كل هذا الى تطوير في اللغة العربية المستعملة في الامصار كان من أبرز ميزاتها زيادة استعمال التعابير المتعلقة بالحيادة المدنية الجديدة وشيوع معان جديدة لبعض الكلمات ، واهمال استعمال كثير من الكلمات وخاصة مما كان استعماله مقصورا على بعض العشائر او المجتمعات •

وقد ظهر بعض ذلك في معاني بعض مفردات القران الكريم وهو الكتاب المنزل الذي ثبتت الفاظه باعتراف العموم بدقة وامانة ، وقد عم استعمال كثير من مفرداته واستقرت لها مفاهيم محددة بعد كان لبعضها مفاهيم متعددة، كما صارت لبعض مفرداته مفاهيم جديدة تختلف عن مفهومها القديم ، ونسيت المفاهيم الاصلية لبعض المفردات، وتطلب معرفتها اختصاص العلماء ، وكانت

هذه مواضيع دراسات سجلت بعضها كتب بعناوين تدل على محتواها ، وهي «معاني القرآن» و «الاشباه والنظائر» و «غريب القرآن» .

رافق هذه التطورات اهتمام بمفردات اللغة العربية ودراستها ، وتثبيت الصحيح في تلفظ اصواتها وتصريفها ، واكثر من عنى بذلك رجال من أهل الكوفة والبصرة ، ولابد انهم افادوا مما كان سائدا او معروفا في كل من هذين المصرين ، غير انه اقتصارهم عليهما لم يكن كافيا ، لان المفردات العامة فيهما اصبحت محدودة لها معان خاصة وتلفظ خاص ، وفيها عدد من الكلمات الاعجمية ، او اتخذت معاني العجمة ، فهي غير شاملة او دقيقة او خالصة ، فتوجهوا الى منابع اخرى يستقون منها الاحاطة بمفردات العربية وتدوينها .

لغة اهل الوبر :

وكان المنبع الاول والاقرب هم الاعراب الذين يفدون الى هذه الامصار ويقيمون فيها امدا قصيرا من اجل الزيارة او جلب منتوجات الصحراء لبيعها، او لشراء بعض المواد ، وهؤلاء الاعراب الوافدون متفرقون من عشائر متعددة يقدمون في اوقات مختلفة ، خاصة في الربيع والخريف ، واجمع امكنتهم الكناسة في الكوفة والمربد في البصرة ، وهما في طرف الصحراء وفي غربي هاتين المدينتين ، وكثير منهم بدو ثقافتهم محدودة ، ولكن منهم ذوي علم اصيل في مجتمعهم ، فهم غير متأثرين بما حدث في الامصار من تطورات حضارية ولغوية ، وبعض هؤلاء الوافدين شعراء او رواة للشعر .

كان هؤلاء الاعراب الوافدون مصدراً ثراً للغة العربية في الجزيرة ، وجعلوا من الكناسة والمربد مركزا لحركة فكرية نشطة لم تقتصرعلى الوافدين ومن يتصل بهم ، وانما ايضا على المعنيين بالشعر و « الكلم الطيب » وبذلك زادت من الاهتمام بمفردات اللغة وساعدت على انماء جوانب اخرى من «علوم اللغة» كالنحو والصرف والاشتقاقات ، وكان البدو يعتبرون حجة

لا يرقى اليها الشك في جميع مسائل اللغة ، وقد ذكر ابن النديم اسماء عدد منهم (٤) .

وقد ظل الاعراب مصدرا معتمدا في اللغة حتى القرن الرابع الهجري ، فكان ابو النجم يحرص على الاتصال بهم(٥) واليهم رحل الازهري (ت٣٧٠).

غير ان عدد الاعراب الوافدين على الامصار كان قليلا، وقدومهم موقت وغير منتظم، وكثير منهم غير مستوعب للمفردات اللغوية ، وخبراتهم وآفاقهم الثقافية محدودة وقد تكون معرفتهم محصورة بما يسود في عشيرتهم او بما يعرفونه منها ، فهي ضيقة خاصة يتطلب تقرير كونها مصدراً معتمداً لمعرفة اللغة الصحيحة تدقيقاً ومقارنة واسعتين ، وقد أدرك عدد من العلماء المعنيين ان المعلومات التي يقدمها الاعراب الوافدين غير كافية فقاموا برحلات الى أرجاء من الجزيرة لاخذ اللغة من أهلها في مواطنهم .

كانت اكثر رحلات «العلماء» الى العشائر التي تسكن هضبة نجد بين العراق والحجاز، وهي تشمل عشائر تميم وأسد وطي وفزارة وعامر بن صعصعة، ويبدو ان بعضهم زار لهذا الغرض الحجاز ايضا ، واغلب هذه الرحلات «علمية» خالصة ، غرضها تقصّي مفردات اللغة بصيغها وطريقة تلفظها ومعانيها، ويجيء في ذلك عرضا استقصاء الاشعار وأسماء الاماكن وبعض انماط الحياة، وكانت اكثر عنايتهم بجمع «المتفرد» من الالفاظ المجهولة أو غير مشهورة ولا متداولة في الامصار، وقد سجل فيها تراث الصحراء ، فهي غنية في مايتعلق بالصحراء من حيوان ونبات وتربة وأنواء وعواطف انسانية فضلا عن قواعدها

(٤) انظر الفهرست لابن النديم ٦١ .
وانظر تفاصيل أوفى في كتاب « الاعراب الرواة » للدكتور عبدالرحمن الشلقاني وانظر : البيان والتبيين (٩٢) . وانظر ايضا «تاريخ الاداب العربية» لمصطفى صادق الرافعي .

(٥) الفهرست ٣٥٥ : معجم الادباء ٢/٦٥ ـ وانظر « العربية » ليوهان فوك : ١٢١ .

المستقرة التي تبرز انماطها وخصائصها في المرونة وقابلية الاشتقاق .

كانت حصيلة هذه الرحلات ثروة غنية وافرة من المفردات أضيفت الى معارف العلماء مما استقوه من أمصارهم والوافدين عليها ، ونشروهـا في أحاديثهم ومجالسهم ، ودونوا كثيرا منها في كتب بعضها عامة منوعة مثل الكتب التي عنوانها « النوادر » أو في كتب اختصت بموضوع واحد مثل « الابل » و « الخيل » و « النبات والشجر » [٦] .

ومادة هذه الكتب في جملتها مما هو موجود في الجزيرة ، وهي تظهـر تنوع احوال الجزيرة وغناها الفكري المعبر عنه بهذه المفردات ، وقد اغنـت هذه المفردات الثقافة العربية ووسعت ميدانها اللغوي ، وقدم انتشارها مـادة سليمة لمعربي الكتب الاغريقية ، وخاصة في ميدان علوم النبات والادويـة والحيوان والبيطرة[٧]، كما قدمت « للكتّاب » من العاملين في الدواوين مادة غنية لضبط كلامهم وكتابتهم بالعربية . وافادت الكتّاب والشعراء باغنـاء معرفتهم اللغوية التي سـاعدت على غنى مفرداتهم ودقتها وكانـت المعتمـد لرواة الشعر العبـاسي وشراحـه ونقـاده ، وكان لهـا الاثـر الاكبر في احتفـاظ الشـعر العربي بمـا يتميـز بـه من اوزان وقـواف واخيلة ، ولم تقض عليها حركات التجدد التالية من الشعر ، ولم تبطل ضرورة استيعاب الشعراء الاطـلاع على ما قيل عند شـعراء البدو . وبسبب اهميتها الواسعة والدائمة فقد كانت أساساً غنيا في الحركة الفكرية ، وكثر دارسـوها وتتابعت فيهـا مؤلفـات تبـاينت في سـعتها ومواضيعها ومدى دقتها ، واكثر هـذه المؤلفات معاجم استقى مؤلفوها مادتهم من الرواة الاول ورحلتهـم ، حيـث قلت الرحلات بعد القرن الثالث وتنـاقص قـدوم « الاعراب الوافديـن » والاعتماد عليهم .

(٦) انظر قائمة مستوعبة عنها في كتاب « معجم المعاجم » .

(٧) انظر كتابنا « تاريخ العلم عند العرب » .

والمادة التي جمعت من هذه الرحلات اصيلة ، ولكن يصعب الجزم بمدى قدمها وانتشارها حتى ابان جمعها ، فمن المحتمل ان مصدر بعضها فردي في محتواه او طريقة نطقه ، ولعل من هذا جاء اختلاف حركات لفظ كثير من الكلمات وتعدد معاني الكلمة الواحدة والاضداد . وكانت معلوماتها عماد المعاجم العربية الضخمة التي ألفت في العهود الاسلامية الزاهرة التي جمعت اكثر ما روى ورتبته على الحروف والمعاني دون الاشارة الى مدى انتشار استعمالها أو تطورها [٨] .

ولاريب في ان العرب الذين ظلوا مقيمين في الجزيرة ولم يهاجروا الى الامصار او يشاركوا في الفتوح كان تأثرهم ضئيلا بالمؤثرات الحضارية التي رافقت الفتوح والاستقرار ، ومن حيث العموم احتفظوا بتقاليدهم وثقافاتهم ومفرداتهم اللغوية ، فكانوا اقرب الى الاصالة والنقاوة من عرب الفتوح والامصار .

اعتمد الرواة الاولون والرحالون من جمع اللغة على مصادرهم من العشائر المحتفظة ببداوتها بين العراق والحجاز ، وهي خاصة تميم وأسد وطي وفزارة وعامر بن صعصعة وعدد من العشائر الحجازية ، وبهذا لم ينقلوا من العشائر العربية الكثيرة الاخرى مثل عشائر بكر بن وائل ، وتغلب ، ولخم ، وجذام ، وأهل البحرين وعمان واليمامة واليمن ومعظم عشائر جنوب شبه جزيرة العرب ، وبذلك لم تكن مستوعبة لكلام كافة العرب من أهل الجزيرة ، كما ان اكثراهتمامهم كان بلغة البدو ، ولم يبدوا اهتماما بلغة الحواضر ، وقدربطوا بموقفهم المنحاز للبداوة بين العروبة والبداوة ، مما اعلى مكانة البداوة ورفع من شأنها ، ولكنه كان مصدرا لاثارة الشكوك بصلة العرب الوثيقة في الحياة

(٨) انظر عن نشأة المعاجم كتاب (المعجم العربي) لحسين نصار ، والمقدمة التي كتبها رمضان عبد التواب في نشرته (الغريب المصنف) وانظر قوائم واسعة عنها في كتاب « معجم المعاجم » .

الحضرية، وقد وصلت الشكوك بكثير منهم الى حد تحاشي الاستشهاد بأحاديث الرسول (ص) على أساس ان بعضاً منها مما صار مستعملا في ازمنة متأخرة في المدن ولم تحافظ على حرفية أقوال الرسول(ص) [٩] ولاريب في أن اقتران العروبة بالبداوة كان من الحجج التي استعان بها الشعوبيون على الطعن بالعرب ولا يرجع هذا الى التشكيك بسلامة نية اللغويين ، وانما يرجع الى ان اندفاعهم في هذا باعدهم عن تصوير الحقيقة كاملة وأمد الشعوبيين بالحجج على العرب .

كانت لغة أهل الوبر «فصحى» سليمة ، وهي عامة بمفرداتها وتراكيبها النحوية والصرفية ، غير ان فيها بجانب هذه العمومية تنوعاً في المفردات والتراكيب وطرق التلفظ ، وقد أشار مدونو هذه اللغة الى مصادر بعض هذا التنوع وذكروا العشيرة التي يسود فيها ، غير انهم اغفلوا الاشارة الى كثير منه ، الامر الذي أدى الى توسع وبعض التنوع والتعقيد في اللغة ، فذكر اوجه للفظ عدد غير قليل من الكلمات وصفت الكلمات المنوعة الدالة على شيء ما بأنها مترادفات ، في حين ان أصول كثير منها يرجع الى التنوع المحلي فيها ، كما ان الفاظا جعلت لها معاني متناقضة واضدادا، وأدى ذلك الى اتساع ما وصلنا من تراث أهل الوبر ، وكثرة الشواذ والتنوع في المعاني والتلفظ، والى صعوبة الاحاطة بالعربية ومعاجمها ، فأخذ كل باحث يختار للاستعمال مايراه ، وبدأ ينعزل «العام» السائد في الاستعمال عن « المهمل والحوشي » وكان هذا العام بدوره غير ثابت ، فهو أوسع عند المتبحرين ، وأقل عند العامة ، وهو لايسير مطردا ، فقد يزداد ويتنوع في بعض الازمنة ، ويضعف في اخرى ، واكثر ازدياده عند من يهتم بالجرس الموسيقي ويعني بايراد المحسنات البديعية ، فانتشار استعمالها غير مطرد ، وهو اكثر خضوعا لتطور أساليب الكتابة .

(٩) انظر : المزهر للسيوطي ١/٢١٠ ، ٢١٢ .

المفردات العربية عند الحضر واهل الامصار :

ان المنبع الثالث للغة العربية هي المفردات التي استعملها أهل الامصار العربية وأهل المدن في مناطق الهلال الخصيب خاصة ، والواقع ان الدولة الاسلامية الواسعة ضمت أراضي فيها مجتمعات بدوية تعنى بالرعي ، وقرى يقطنها أهل الريف من الزراع ، وبلداناً ومدنا يقطنها سكان كثيرون يمتهن بعضهم الحرف والصناعة وأعمال السوق والتجارات ، بالاضافة الى رجال الفكر والادارة ، وكثير من المدن يسكنها من لهم صلة بالزراعة فيقومون فيها أو في بعض أطرافها بالزراعة ، أو يمتلكون أراضي تزرع في الريف .

وتتميز المدن بتنوع الحياة ومايتصل بها من نظم وأفكار ، ففيها الطبقات الدنيا ممن حياتهم رتيبة ، وأفكارهم محصورة ، ومفردات لغاتهم محدودة قد تتخذ خصائص في تلفظها ومعانيها ، وفيها العامة والسواد الاعظم الذين يعمل اكثرهم في الحرف والصناعات ، ولهم بعض الخصائص الثقافية والآفاق الفكرية التي تظهر في لغاتهم في تنوع مفرداتها وطريقة تلفظها علما بأن أكثر الغرباء في أية مدينة يكونون من هؤلاء العامة ، ومع ان هؤلاء العامة يتكلمون لغة واحدة بمفرداتها وتراكيبها الا انهم قد يستعملون مفردات محلية خاصة تعبر عن حرفهم واساليب عملهم الخاصة .

غير ان المدن تضم اكثر من غيرها اعدادا من رجال الادارة والفكر الذين لهم نطاق لغوي واسع بعدد مفرداتها وآفاق مفاهيمها ، والغالب انها متصلة بالفكر العام للعلماء ، فهي تسمو على الاقليمية والانية ، وتقرب من العمومية الواسعة الممتدة على نطاق أوسع من المكان والزمان .

وكانت في الدولة الاسلامية منذ بدء تكونها مراكز حضرية كثيرة لاتتوفر معلومات واسعة عن تركيب معظمها والحياة فيها ، وقد اولى الاسلام منذ بدء ظهوره اهتماما أوسع في الحياة الحضرية ونظمها وعقائدها ، وقد بدأت الدعوة الاسلامية في مكة وهي مركز حضري ديني وتجاري ، وانتقلت بعد عشر

سنوات الى المدينة وهي مركز حضري تسود فيه الزراعة وتقوم فيه بعض الصناعة والتجارة ، وركزت الدعوة الاسلامية فيه على تثبيت افكار كونية عامة ومبادىء اخلاقية توجه سلوك الافراد ، وعلى نظم اجتماعية وسياسية تنظم حياة الجماعة ، وكانت دولة الاسلام في السنوات الاولى قائمة في المدينة ويطلب ممن يسلم أن يقيم فيها ، فتزايد سكانها بتزايد المسلمين ، ومع ان الزراعة بقيت حرفة غالبية السكان من الانصار ، الا ان التجارة والاعمال المالية ، وربما الصناعة ، ازدهرت بفضل استتاب الأمن وخبرات المهاجرين من اهل مكة ونشاط الحياة العامة ، وكان لكل ذلك أثر في زيادة اهتمام الاسلام بالحياة المدنية وعبرت آيات قرآنية عن استهجان قلق البدو وضحالة افكارهم «قالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولمّا يدخل الايمانفي قلوبكم» «الاعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم » وهذا الموقف العدائي كان موجها الى افكار البداوة ، وليس الى البدو الذين لقوا الترحيب عند انضمامهم الى الاسلام واظهار استعدادهم لقبول افكاره التي يتطلب التشبع بها وقتا (١٠) .

كان للتوجه الاسلامي العام المماليء للحياة الحضرية أثر في تعزيز الحياة الحضرية ، وقواه ان المهيمنين الاولين على ادارة الدولة وتسيير دفتها اكثرهم من أهل مكة ممن تقبلوا الاسلام وكانت لهم اهتمامات وخبرات في الحياة الحضرية وفي التجارة ، وهذا شجع نمو الحياة الحضرية ونشرها في الدولة ، حيث ان توحيدها السياسي أزال الحدود والحواجز بين الاقاليم ، وأولى الفرد مكانة خاصة فتيسر له حرية التنقل ، وقدم له دوافع مشجعة للعمل ، ووضع له مبادىء لتنظيم الحياة وفق مبادىء في الاخلاق والسلوك تعزز الطمأنينة والاستقرار والتحرر من القيود المعرقلة ، ورافق ذلك رقي في مستوى معيشة

(١٠) انظر مقالنا « الاسلام والبداوة في صدر الاسلام » المنشور في مجلة كلية الادارة والتربية بالكويت ١٩٧٥م .

العامة ، وتوفر الموارد للافراد وازدهار الصناعة والتجارة لتأمين حاجات الناس ، وبفضل الامن والحرية لم تتعطل التجارات الخارجية .

وأدى كل ذلك الى تطور عام في المراكز الحضرية التي بقي معظمها قائما وازدهار بعضها ، كما نمت اماكن جديدة لتصبح حضرية ، وكان هذا التطور سلمياً ناجماً عن الاوضاع العامة الجديدة ، وازداد قوة وبرزت آثاره عندما ولى العباسيون الخلافة ، فكانت في الدولة مراكز حضرية كثيرة منبثة في كافة أرجائها تتميز عن مجتمعات البدو والرعاة وعن قرى أهل الريف ، بما كان فيها من صناعة وتجارة ونظم .

الكوفة والبصرة وبغداد :

لاريب في ان هذه المدن الكثيرة كانت تختلف في تركيبها السكاني والاجتماعي والثقافي، ولا تتوفر تفاصيل شاملةعن كثيرمن هذه المدن، فكثيرمنها لانعرف عنه الا اسمه وموقعه واحيانا اهميته ، ويمكن تصنيفها لغرض بحثنا الى ثلاثة أصناف رئيسة هي مدن عربية خالصة، ومدن استوطن فيها العرب ، ومدن اعجمية ، ويتناسب مقدار معلوماتنا تبعا لهذا التصنيف ، فهي واسعة عن اكثر المدن العربية وأقل عن المدن الاعجمية ، غير ان معلوماتنا اوسع عن بعض المدن العربية ، واخصها المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، وسامراء ، والفسطاط ، وبعض مدن بلاد الشام ، ولكن المعلومات الواسعة عن المدن الاربعة الاولى خاصة لا تصل الى حد الاستيعاب في تفاصيل نظمها وحياتها ولغة اهلها [١١] .

وكانت مؤلفات علماء البصرة والكوفة وبغداد ، هي المنبع الاكبر الذي نستقي منه معلوماتنا عن اللغه العربية ، وهذه المدن تشترك بسمات عامة

(١١) يذكر السيوطي ان الذي اثبت اللغة في كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من أهل الامصار (المزهر ١/١١١)

حضارية ولغوية فكــل من هــذه المدن انشأهــا العــرب المسلــمون في مناطق زراعية مأهولة بسكان ممن لهم صلة عرقية ولغوية بالعرب وفي رقعــة زراعية قليلة السكان نسبيا ، وبقربها مراكز حضرية قديمة ، فالبصرة بقرب الابلة وفرات البصرة ، والكوفة بقرب الحيرة ، وبغداد ليست بعيدةعن المدائن، كانت في كل من هذه المراكز الحضرية حركة فكرية قديمة تعرضت للركود قبيل الاسلام ، وظل كل من هذه المدن الثلاثة مركز ادارة واسعة للمتولى عليهــا سلطات كبيرة ويمتد الى مناطق واسعة .

غير ان لكل من هذه المدن الثلاثة خصائص تميزت بها ، ومجرى خاصاً من التطور حدث فيها وكان له تأثيرفي الاحوال اللغوية لسكانها[١٢]، فالكوفة كان سكانها العرب منذ بدء تاسيسها من العشائر التي كانت مواطنها في الاصل في اواسط وشمالي نجد ، تميم ، طي ، اسد ، فزارة ، عامر بن صعصعة،وكذلك من عشائر الحجاز واهله ، وفيها عدد كبير من اهل اليمن (ازد السراة ، خثعم، همدان ، مراد ، حمير ، كندة ، حضرموت) وفيها ايضا بكر وتغلب وقلة من عشائر البحرين واليمامة ، ومنها يسلك الطريق الرئسي بين اقــاليم المشرق والحجاز ، وهي بالقرب من الحيرة التي كانت مقر دولة عربية رعى أمراؤهــا الشعر العربي البدوي الخصائص ، وبسطوا سلطانهم السلمي على عشــائر كبيرة من شمالي نجد (بكر وتميم) ، وتابعت الكوفة علاقتها الوثيقة بهــذه العشائر التي كانت لها صلات سلمية وثيقة بمكة ، وامتدت صلة الكــوفة الثقافية بالمدينة ومكة فازدهرت فيها دارسة الفقه وعلم الحديث والقــرآن خاصة ، كما نشطت دراســات اللغة العربية ، وكــثر المعنيون بها بمتابعة لغة العشائر في شمالي نجــد ، واعتبروا سماعهم لها اساساً دون الــقياس والاستنباط،كما كانت صلتهم بعلم اهل الحجاز وثيقة،ومن علماء الحجاز كان

(١٢) انظر عن الكوفة «حياة الشعر في الكوفة» ليوسف خليف ، و «الكوفة» لهشام جعيط .

معظم مصادر علم اهل الكوفة في السيرة والحديث •

وكانت صلة بغداد الثقافية منذ تأسيسها أوثق بالكوفة التي انتقل كثير من علمائها الى بغداد ، فنشروا علمهم ، وأرسوا توجيهاتهم الفكرية فقدموا مع اهل الحجاز الاساس الاكبر للعلم في بغداد في هذه الميادين •

غير ان الكوفة انتابها التدهور بعد تأسيس بغداد ، فقد هاجر الى بغداد كثير من اهلها العلماء والتجار ورجال الاعمال ، وعلى مر الايام فقدت مكانتها المتميزة ، واصحت مجرد بلدة تحمل بعض سمات الماضي وآثاره •

اما البصرة (١٣) فكانت اطرافها بادية قليلة السكان تعزلها رمال الصمان عن هضبة نجد ، مما جعل صلتها اوثق بالعرب الذين ديارهم في غرب الخليج العربي ، وهم بكر وعبدالقيس وازد عمان ، وقد كوّن هؤلاء معظم سكانها ، واضيف اليهم عشائر من أواسط هضبة نجد وغربها ، وخاصة تميم وبني عامر بن صعصعة ، ومن اهل الحجاز • ولم تقطنها عشائر من اليمن أو من شمالي الجزيرة وشمالي الحجاز (طي وأسد وفزارة) •

ومنطقة البصرة تتصل بالخليج العربي ، فلا يفصلها حاجز معرقل عن البحرين وعمان ، كما ان ملاحة الخليج تربطها بالبلاد الواقعة على طرفي الخليج وبالبلاد الواقعة في اطراف المحيط الهندى في افريقية والهند وجزر الهند الشرقية ثم الشرق الأقصى ، وبالقرب منها ايضا اقليما الاحواز وفارس الغنيان بالمزروعات وخاصة قصب السكر وبصناعة المنسوجات ، وكل هذا

(١٣) انظر عن البصرة كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها» و «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وانظر ايضا «الحياة الادبية في البصرة» لاحمد كمال زكي و « الشعر في البصرة في العصر الاموي» لعون شريف القاسم، و «الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء » لساول بيللات ، والجاحظ والحاضرة العباسية لوديعة طه النجم .

جعل منها مركزاً تجاريا متميزاً ، وأسهم اهل البصرة بالملاحة والتجارة فكـان ذلك من عوامل دوام ازدهارها بعد انشاء بغداد .

وقد تقاطر بعض الاعاجم الى البصرة واستوطنوها شأن ما حدث في الكوفة ، ولعل كثيرا منهم كانوا عمالا وحرفيين وتجاراً ، والراجح انهم كانوا يستعملون لغاتهم الخاصة ومفرداتها وخاصة في الحرف التي اختصوا بهـا ، ولم تكن لها مفردات عربية ، كما ان كثيرا منهم تعلم العربية التي كانت اللغة السائدة . وبرز في البصرة من اهتم بدراسة مفردات اللغة وقواعد نحوهـا وتصريفها ، فكان فيها عدد من أبرز اللغويين الاولين ، ومن اشهرهم الأصمعي والخليل ، ومنهم سيبويه مؤلف أول كتاب ضخم في النحو العربي ، وظلـت دراسات اللغة العربية قائمة فيها في العصر العباسي الاول ، واسهم بعضهم في الحركة الفكرية في بغداد ، ومن ابرزهم في هذا الميدان الجاحظ .

بغداد ومكانتها في اللغة :

كان تأسيس بغداد حدثاً بارزاً في تاريخ العمران والفكر ، وقد اسهدف ابو جعفر المنصور من انشائها ان تكون مركزا عسكريا واداريا لحاشيته واسرته وحرســه وجنده ، فقاعدتهـا الاولى النظام والانضباط ، غير ان ابـا جعفر المنصور لم يغب عن باله ان تكون مدينته الجديدة مركزا لحياة اقتصادية وفكرية نشيطتين ، والواقـع انه سرعان ما تقطر اليها الناس للتوطن فـيها مستفيدين من الامن والاستقرار ، ومن تزايد الموارد الماليـة من الجبايات ولابد ان بعض الوافدين شاركوا أصحاب القطائع الاولى في السكنى ، غير كثيرا منهم استوطن في اطرافها الجنوبية وفي جانبها الشرقي اللذين توسعا بزيادة عدد هؤلاء الوافديـن ، ووصلت حدا عاليا من النمو في زمن خلافة هرون الرشيد الذى تشير الاخبار والدلائل على وصولها في زمنه ما يقرب الاوج

من الازدهار والنشاط[١٤] .

يتبين من دراسة خطط بغداد انه كان فيها عدد من النصارى من النساطرة واليعاقبة ، ولهم في بغداد أديره قليلة ومحلة باسمهم في الجانب الغربي ، واخرى تسمى «دار الروم» في الجانب الشرقي ، ووجود هاتين المحلتين بين العدد الكبير من المحلات يدل على قلة عددهم نسبيا ، ولم تذكر المصادر لغتهم، وقد تكون السريانية ، ولكن قربها من العربية يسهل تعلمهم العربية .

وذكرت في بغداد محلة واحدة باسم المجوس في الجانب الغربي ولعل كثيرا من سكانها الاولين كانوا يدينون بالزرادشتية ويستعملون الفارسية ، الا ان عددهم محدود ومحلتهم في اقصى الاطراف الجنوبية من الجانب الغربي .

تظهر خطط بغداد انه سكنها منذ اول تأسيسها جماعات من مدن عديدة في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، والراجح ان كثيرا منهم كانوا من المقاتلة العرب الذين تفرقت سكناهم في تلك المدن لاسباب عسكرية ، ولعل غير العرب منهم كانوا يتحدثون بالعربية ايضا .

تعبر بغداد ، شأن كثير من المدن العربية الاخرى ، عن ظاهرتين في المفردات اللغوية هما ، المفردات التي يستعملها الناس ، والمفردات المدونة في المعاجم وفي الكتب المختصه باللغة .

أمّا المفردات التي يستعملها الناس فبعضها مشترك عند عموم الناس ، وبعضها منفرد باشخاص او جماعات او حرف ، ولا تدخل في ذلك ما يستعمله افراد متفرقون من الفاظ ينفردون باستعمالها او طريقة في النطق تنحصر في كل منهم .

وأمّا اللغة التي يشترك فيها عموم الناس ، وهي ماتسمى اليوم « اللغة

(١٤) انظر تفاصيل وافية عن تأسيس بغداد وسكانها وتنظيم خططها كتابنا « بغداد مدينة السلام » .

الأساسية » وتتميز بمفردات محددة تتصل بمتطلبات الحياة اليومية والتصرفات الفردية من أسماء المستلزمات المادية العامة وما في البيئة من حيوان ونبات وأحجار ، والاعضاء الرئيسة للجسم ، وقواعد السلوك العام ، وفيها مفردات من النظم الادارية العامة والفرائض الدينية ، وكثيرا ما يشوب تلفظها تحريف ، وهو مايسمى « اللحن » وقد أشارت بعض المصادر الى «لحن العامة »، وألفت فيه عدة كتب، فذكرت المصادر كتبا عنوانها «ما تلحن فيه العامة» ألف فيها كل من احمد بن حاتم ، والاصمعي ، وثعلب، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي حنيفة الدينوري ، وسلامة بن غياض ، وأبي عبيدة ، وأبي عثمان المازني ، وأبي الهيذام .

وألفت كتب عنوانها « لحن العامة » أو « لحن العوام » ألف كلا منها ابو هلال العسكري ، والكسائي ، وعمرو بن محمد السكوني .

وامتد اللحن الى الخاصة ، فألف في ذلك كتابا كل من ابي هلال العسكري ، وأبي أحمد العسكري ، كما ألف ابو عبيدة ما خالفت فيه العامة لغات العرب .

ولابد ان مادة اكثر هذه الكتب عن « عامة بغداد » حيث عاش معظم هؤلاء المؤلفين ووجهوا العناية اليها ، وتدل عناوينها على انها تبحث في انحراف « التلفظ » من حيث الاصوات أو قواعد النحو ، وليس عن مادة الالفاظ ومعانيها .

ومن المعلوم ان اكثر الناس هم من اصحاب الحرف والصناعات ويستعمل كل منهم مفردات عن مايستعمله من الادوات وأساليب العمل ، وأحيانا المعاملاتلا ، وبعض هذه الحرف عربية في أصولها ، غير ان كثيرا منها اخذه العرب في العراق من الاعاجم ، أو استخدموا فيه الاعاجم الذين وان تكلموا العربية الا انهم يكثرون من استعمال الكلمات الاعجمية .

ان الاعتزاز بالعربية دفع اهل المدن العربية على التمسك باستعمالها

والحرص على الاحتفاظ بها ، ومما عزز موقفهم ان الهيئة العليا الحاكمة من الخلفاء ورجال البلاط وكبار رجال الجيش والادارة كانوا من العرب وكانوا يعتزون بالعربية ويحرصون على بقائها ، وكانوا موئل الشعراء الذين ينظمون بها ، ومصدر تقدير لمن يحسنها ، وكان مؤدبو الخلفاء ومعظم كبار رجال الدولة من المختصين بالعربية وعلومها •

ثم ان القرآن الكريم ، وهو بلسان عربي مبين ، كانت اياته تتردد في الصلوات والفرائض ، وفي اقوال الخطباء والوعاظ ، فتعين على تثبيت العربية ونشر الفاظها وطريقة نطقها •

وكان اعتداد العرب بذاتهم كبيرا وخاصة في أوائل سنى الدولة حيث كانوا المهيمنين على الدولة والاداة الكبرى في الحفاظ عليها وانمائها ، ومع ان غير العرب ازداد عددهم في الامصار، وتوسع دورهم في الحياة الفكرية ، وعلا صوتهم في الحياة العامة ، واظهر بعضهم تعصبه لقومه وحاول تحدي مكانة العرب وخصائصهم ، فجاهروا في شعوبيتهم التهجمية ، وسلكوا مسالك ظاهرة وخفية للمس بتراث العرب ومكانته، الا ان اغلب مواقفهم كانت سلبية اقتصرت على الطعن بالعرب والفخر بانجازات غيرهم دون ان يقدموا بديلا عن العربية والعروبة ، وفيما عدا كتب الدين النصرانية واليهودية فانه لم يدون شعر او نثر بغير اللغة العربية حتى اواخر القرن الرابع الهجرى ، ويلاحظ ان الكتابات بغير العربية كانت في اقاليم الهضبة الايرانية واكثرها برعاية حكام اعتزوا بتمسكهم في الدولة الاسلامية والدين الاسلامي اللذين تكوّن العروبة اساسا مكينا لهم ، وكانت اكثر انتاجاتهم الثقافية في الشعر والرسائل والتواريخ المحلية ، وفيها وصف اكثر من اعتزاز بالاوضاع القائمة ، وقل فيها الفخر بماض يتحدى العروبة وفي كتاباتهم مفردات عربية لاتقل عن نصف ما يستعملونه من مفردات اضافة الى تأثرهم بأساليب الشعر والنثر العربية •

لاريب في أن أوضح سبيل لمعرفة كلمات الحرفيين هي تصنيفها تبعـا للحرف ، فتكتب الكلمات التي يستعملها أصحاب كل حرفة ، ولانعلم كتابـا أفرد للكلمات التي يستعملها أصحاب كل حرفة ، ماعدا كتاب الدواوين ، وأبرز ما ألف فيها ، «مفاتيح العلوم» للخوارزمي ، غير ان بعض المصنفات في فقـه اللغة خصصت مكانا ذكرت فيه عددا من الحرف وبعض الكلمات المستعملة في كل حرفـة ٠

وفي الكتب التي اختصت بدراسة الكلمات المعرّبة عـدد غير قليـل من الكلمات الاعجمية التي استعملها العرب ، ولابد انها كانت اشيع عند العامة ، ولكن كثيرا منها استعمله العلماء ايضا ، واشـهر كتابين في ذلك « شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل » ، للخفاجي ، و « المعرب مـن الكلام الاعجمي على حروف المعجم » لموهوب بن احمد الجواليقي (ت ٥٤٠هـ) وفي مقدمته اشارات الى حروف كلمات اعجمية ٠

غير ان التطور الحضاري أدى ، بالاضافة الى تعريب عدد من الكلمات الاعجمية ، الى اسباغ معان جديدة لعدد غير قليل من الكلمات العربية الاصيلة، وكثير من هذه المعاني تعرض بدوره الى تطورات ، فصار للكلمة الواحـدة معان متعددة تبعا لأحوال الزمان والمكان ، واحيانا الافراد مـن الكتّاب ٠ وكثير من هذه الكلمات « المولدة » وتطور المعـاني لم يدخلـه اصحـاب المعاجم الكبيرة المشهورة في معاجمهم ، ولم تؤلف فيه الا كتب قليلة عن تطور معاني بعض الكلمات « الفنية » ، كالذي فعله الجرجاني في « التعريفات » ، كما ان الدراسات الحديثة اقتصرت على رصد بعض هذه الكلمات ، وبحثت في تطور معاني عدد محدود منها ، مما يجعل الحاجة قائمة الى معجم لغوي حضاري شامل يضم ما استعمل من المفردات ، ويرتب معلوماته عن كل منهـا وفقاً لتطورها عبر الزمان والمكان ، ولابد ان استعمال الحسابات والاجهـزة التقنية الحديثة ييسر هذا العمل الذي يتطلب جهودا واسعة جديرة بأهميته ٠

المفردات عند العلماء :

رافق تكوّن الدولة الاسلامية نشاط فكري واسع في دراسة ما هو قائم وتفهمه وانمائه ، وكانت عناصره الأساسية تراث عربي موروث عزّزه الاسلام واغناه بما ثبت فيه من الفاظ احتفظت بمعانيها القديمة او اسبغت عليها معاني جديدة ، وكانت ترقى الى مستوى فكري عال يتطلب معرفة خاصة بالمفردات ، فكانت طلائع النشاط الفكري في الامصار تدارس « الكلم الطيب » من حكم وامثال ، وتداول الشعر الذى يتطلب فهم مفرداته وافكاره والصور التي يعرفها ، وكان المعين الذي يستقون منه أهل البادية ، وخاصة الاعراب الذين يقدمون مادة غنية عن كثير من المفردات التي تتطلب التوضيح غير انه لابد من اكمالها بتوضيحات يقوم بها « اهل الحاضرة » الذين ظهر فيهم كثير من الشعراء وكان عندهم ينشد اكثر الشعر ويكثر تداوله .

ورافق ذلك ظهور من عنى باللغة وضبط مفرداتها وتراكيبها ، وبمرور الايام اتسعت مادتها وكثرت تشعباتها وعمقت مادتها ، وصار فهمها الشامل يتطلب تبحرا وتخصصا ، غير ان التخصص كان واسعا متشعبا ، ولم يكن ضيقا محدودا ، فضلا عن ان هؤلاء « العلماء » لم يعيشوا في برجهم العاجي وانما كانوا متصلين بالناس ، وكثير منهم متصلا بذوي السلطان ، فتعمقهم في البحث الذى يقودهم الى اتقان « الغريب المتفرد » لم يعزلهم عن الناس ، فكانت كتاباتهم المعبرة عن تكوينهم الفكري بسيطة واضحة ، ومفرداتها مألوفة شائعة .

الفقــه :

ومنذ منتصف القرن الاول الهجرى ازداد ظهور القضايا الاجتماعية ومنها ما يتعلق بالعبادات او المعاملات او الصلات الاجتماعية بين أفراد الاسرة او بين طبقات المجتمع ، وظهر معنيون ببحثها واصدار الاراء فيها ، وكان اكثر

الاوائل منهم من اهل الحجاز ، وخاصة ممن كان يقيم في المدينة ومكـــة ، واقتضت الاحوال ان يكثروا من استعمال المفردات المتداولـــة في بيئتهـــم وهي التي عاش فيها الرسول (ص) فكانت مفرداتهم مما استعمله الرسول (ص) وما استجد بسبب تطور الاحوال ونموها ، وكان لفقهاء المدينة في هذا الزمن المبكر مكانة خاصة ، فهم اوثق صلة بتراث الرسول(ص) والصحابة والخلفاء الاولين الذين مدوا الدولة ورسخوها ، وكانوا بعد انتقـــال مقر الخلافـــة الى الشام غير خاضعين مباشرة لضغط السلطات الحاكمة ، كما ان موقع الحجـــاز المتوسط بين الاقاليم الرئيسة ، ووجود الاماكن المقدسة فيه يجعله اكثر ملاءمة لترسيخ النظرة الاسلامية الشاملة في الاحكام ، وبذلك استوعبوا القضايـــا التي لاتشغل بيئتهم المحدودة فحسب ، بل ايضـــا كثيرا مـــن القضايـــا التي تهتم بها بقية المناطق ، وبذلك وضعوا الخطوط العامة للفقه ونطاق دراسته، كما قدموا حلولا لكثير من قضاياه التفصيلية .

ونمت دراسة الفقه في أمصار اخرى ومنها الشام والبصرة ولكن اخصها الكوفة ، وكان فقهاؤها ذوي صلة وثيقة بفقهاء المدينة ، وقد شـــجع الخلفـــاء العباسيون الاولون علم أهل المدينة وعملوا على اتخاذه أساسا للعلم في بغداد، واظهر ما يعبر عن اثر اهل المدينة في العراق هو ان ابا يوسف وهو اول فقيه وصلتنا كتب منه ، كان معظم شيوخه ومصادره اهل المدينة ، كما ان محمد بن الحسن الشيباني ، وهو الفقيه البارز الثاني في العراق ، درس على فقهـــاء أهل المدينة وكان ممن روى موطأ مالك .

تتميز كتب الفقه بسعة مفرداتها المتصلة بالعبادات وبجوانب الحيـــاة الاقتصادية والاجتماعية مما له علاقة بسواد الناس وعامتهم دون الخاصة ، وبالسلوك المقبول دون الترذل المنبوذ ، فمفرداتها متعددة ومنوعة ، ولكنهـــا دائماً دقيقة التحديد لانها اساس الحكم القانوني ، ومعانيها واضحة عنـــد

الفقيه الذي يستعملها ، ويدل تعددها على غنى ثروة الفقهاء اللغوية، وهي متصلة بالعامة من الناس ، ولكن لايمكن الادعاء بانها الثروة اللغوية لكل فرد ، فلابد ان الافراد اقل احاطة بها وبدقة فهمها .

ولابد ان كثر مفردات فقهاء المدينة كان مما هومستعمل في المدينة ومكة، ونظرا لصلاتهما التجارية القديمة خاصة مع اقاليم غرب الجزيرة ، بما في ذلك اليمن وبلاد الشام ، فلابد انهم استعملوا المفردات العربية الشائعة عندهم منذ قبل الاسلام ، ولابد ان يكون لليمن اثر اكبر للصلة الوثيقة بين اليمن والحجاز، خاصة وأن كثيرا ممن عنى بالفقه وكذلك قضاة الامصار كانوا من أهل اليمن، غير ان ضعف صلتهم بمناطق شرقي الجزيرة يوحي بانهم لم يستعملوا ما تفرد به هؤلاء من تعابير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ان الازدهار الاقتصادي في الحجاز ابان القرن الاول وأوائل القرن الثاني الهجري ، جلب الى المدينة ومكة عددا من الاعاجم وسلعهم ، فشاعت بينهم كلمات اعجمية منها ماكان مستعملا في المشرق ، ومن مظاهر ذلك تردد كلمة « العدل ببرنامجه » وبيع «ده دوازده» في مدونة مالك ، غير ان المفردات من الرومية نادرة ، ان كانت موجودة ، وكان وجود الكلمات الاعجمية أحد المبررات التي اعتمدها اللغويون لعدم اخذهم اللغة من أهل الحجاز .

ساعدت مكانة فقهاء المدينة على تثبيت مفردات معينة بمفاهيم محددة عند الباحثين في الفقه ، ورافق امتداد مكانتهم انتشار هذه المفردات بمعانيها المحددة في أوساط الفقهاء في كافة أرجاء دولة الاسلام ، وقد امتد هذا التأثير عبر أزمنة طويلة حتى انك لاتلقى صعوبة لغوية عند قراءة كتاب في الفقه في أوائل القرون أو في أواخرها ، وقد يكون الفرق الاساس البارز هي كتب الفتاوى والنوازل التي يكثر في كل منها تعبيرات من واقع زمن كتابتها وكثيرا ماتكون محلية .

غير ان عددا من المفردات الفقهية انحصر استعمالها وفهمها عند المختصين

من علماء الفقه ، واصبح معناها غريبا عند غيرهم ، وقد دخل بعضها في المعاجم اللغويـــة العـــامة ، وظل عدد منهـــا معزولا ، وألف عدد قليـــل من المعاجم الخاصة بهـــا .

وهكذا ثبت الفقهاء استعمال كلمات خاصة متصلة بالحياة اليومية للناس ومحددة بمعان خاصة ، وهي عربية الاصول مما يدل على قدم اســتعمالها ، وبعضها يعبر عن مؤسسات مالية وادارية كانت قائمة في اقاليم اخرى مثـــل «راس المـــال » « ام القرى » « الحاضر » .

ومما يتصل بالفقه والكتابة . النصوص القانونية لمعاملات البيع والاجارة والارث وما اليها ، وهي تسمى في المشرق « الشروط » وفي المغرب «النوازل» وهي تقوم على أساس احكام الفقه وتستعمل مفرداته ، ولكنها تفصّـــل في الحالات التي تبحثها ، وتستعمل مفردات تعبر عن الحياة اليومية وما فيهـــا ، وبحكم وضعها القانوني تدقق في استعمال الكلمات ، فمفرداتها عربية سليمة ودقيقة ومما يستعمله الناس ، غير انها قـــد تدخل مفردات غـــير « فصيحة » شـــائعة .

ذكرت المصادر اسماء عدد كبير من الكتب المؤلفة في الشروط والنوازل، بالاضافة الى فصول تكتب في كتب القضاء عن الشروط ، غير انه لم يصلنـــا منها غير كتابين ألفهما الفقيه الحنفي الطحـــاوي في أوائـــل القـــرن الرابع ، والسمرقندي في القرن السادس ، وأورد القلقشندي في «صبح الاعشى » ثلاثة نصوص عن الاراضي في العراق تتعلق بالاراضي ..

ووصلت كتب كثيرة في «النوازل» مما كتب في الاندلس والمغرب، وطبع بعضها ، ولغتها عربية ، ومفرداتها مما هو مدرج في كتب الفقه او ما يستعمل في الحياة اليومية والاوضاع القائمة ، وقليل منها مفردات محلية .

كتابه الاسائل والاداب :

ومن مظاهر ازدهار الحركة الفكرية التي تتصل بها الالفاظ هي الكتابة التي يمكن تصنيفها الى ثلاثة أصناف هي : الكتابات المعبرة عن العواطف والخلجات والمشاعر والافكار مما نسميه «الاداب» ، وكتابة الرسائل السلطانية الصادرة من الخلافة ورجال الادارة ، وكتابة الدواوين المالية .

فأما الاداب فان اصولها تمتد الى ماقبل الاسلام حيث عرف العرب بتقدير « الكلم الطيب » وتناقله حكما او امثالا ، بالاضافة الى رواية الحوادث وأوصاف الاعمال، فمفرداتها عربية ومعروفة، وهي «متخيرة» بدقتها ورصانتها، وقد نمت واتسعت بعد استقرار تكون الدولة الاسلامية حيث تابع المستقرون في الامصار خاصة اهتماماتهم بآداب السلوك والعواطف التي يعبر عنها بمفردات واضحة يزداد تقديرها مع دقتها ، وقد وصلتنا منها نصوص قصيرة عن العهود الاولى ، ثم ازدادت عددا وسعة منذ أوائل العصر العباسي ، ونبغ كتاب تنوعت اساليب كتابتهم من البساطة والسلاسة والطلاقة والاسترسال الى التدقيق واعمال الفكر في صياغة الافكار وتخير الالفاظ ، وعنى بعضهم باختيار المفردات واعتبارها أساسا لسمو الكتابة وبلاغتها، وكانت كتابتهم بمفردات عربية اساسها ماجاء في القرآن الكريم وما يستعمله الناس وعمموا كثيرا من مفردات أهل الصحراء، وقلل بعضهم استعمال كلمات اخرى حتى صارت حوشية غريبة، واستعملوا مفردات بغير معناها القديم لتعبر عن صور جديدة بما في ذلك تسمية الأساليب البلاغية من جناس وطباق واستعارة وكنايات ومجاز (١٥) .

تطلب قيام الدولة الاهتمام بالكتب التي تصدر عن الخلفاء والولاة

(١٥) انظر في ذلك « نشأة الكتابة الفنية » لحسين نصار ، و «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» لزكي مبارك .

وأولي الامر، وهي تكتب بالعربية ، ويعنى فيها باختيار الالفاظ المعبرة بدقـة ووضوح عن الافكار المطلوب عرضها ونقلها ، فاساليبها بسيطة واضحـة ، وتعابيرها من المألوف السائد عند كاتبه ، والمفهوم عند متلقيه ، وكان اغلـب ما كتب منها في صدر الاسلام قصيرا ، ومفرداته مفهومة التعابير في زمنها ، وان كان بعضها تبدل بمر الزمن ، وروعيت في كثير منها المفاهيم الاسـلامية الجديدة، واعتمد أصحاب المعاجم كثيرا من هذه المفردات ونقلوها للاستشهاد، وقام عدد من المحدثين بجمعها في كتب من اشهرها « الوثائق السياسية في عهد الرسول (ص) والخلافة الراشدة» لمحمد حميد الله ، و «جمهرة رسائل العرب» لمحمد صفوت و « الوثائق السياسية » لماهر حمادة •

وقد كثرت هذه الكتب في زمن الخلافة العباسية ، وازداد طول كـل منها ، وبعضها يتعلق بقضايا سياسية متنوعة في محتواها، فبعضهايتعلق بالادارة وبعضها يتعلق بقضايا سياسية ، وفيها افكار ولاة الامر عن السياسة والادارة ومفرداتها عربية ، وألفاظها متخيرة للتعبير الدقيق بالدرجة الاولى ، وقد دبج صياغتها كتاب يعملون في بلاط الخليفة أو الوالي ، فهم يدركون المطلوب من الكتابة ، ويصوغون الكتب بلغة عربية سليمة •

تطلبت المكانة الخاصة للغة العربية العناية بتدقيق عبارات الكتب الرسمية، وتخير الالفاظ السليمة في كتابتهـا ، فكان اتقان اللغة جـزءاً أسـاسيا مـن متطلبات ثقافة الكتاب ، وقد حث عبدالحميد الكاتب الكتـاب في رسـالته المشهورة التي وجهها اليهم اتقان العربية فقال « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الاداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عـز وجـل ، والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم، وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها •

كان حرص كتاب الرسائل السلطانية على الكتابة بعربية سليمة بمفرداتها

ونحوها من دوافع تأليف كتب تعنى بذكر المفردات العربية السليمة مرتبة في الغالب حسب مواضيعها مما يحتاجه الكاتب ؛ ومن أشهر الكتب الاولى فيها « أدب الكاتب » لابن قتيبة (ت ٢٧٦) ، وقد اعتبره ابن خلدون أحد الكتب الاربعة الاساسية في أصول الادب ، وذكر ابن قتيبة في مقدمته ان الدافع لتأليفه انه رأى «أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الادب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولاهله كارهين » ، وان «ابعد غايات كاتبنا في كتابته ان يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا ان يقول من الشعر ابياتا في مدح قينة أو وصف كأس» وانه «طال عليه ان ينظر .. في علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه » وهو يقول انه عزم على معالجة ذلك بتأليف كتب خفاف في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل منها على فن، متحاشياً التطويل والتثقيل •

وهو يذكر ان الكاتب يحتاج الى معارف اخرى في الهندسة والمساحة والفقه واخبار ، وأكد على ان السابقة لتأديب وتهذيب الاخلاق ، ثم يتلوها تأديب اللسان وتهذيب الالفاظ العفة ، مع تحاشي الغريب ، وانه يكره في الكتاب وحش الغريب وتعقيد الكلام •

وذكر فيه التعابير المستعملة في مختلف ميادين الحياة مرتبة حسب مواضيعها ، وتلاها بابحاث الصق بالصرف والنحو •

ومن هذه الكتب كتاب «الكتاب» لابن درستويه (ت٣٤٧) وهو يعني بضبط الكلمات • ومنها «الالفاظ الكتابية» لعبد الرحمان بن عيسى الهمداني (ت٣٢٠) ورتب الكلمات الاساسية المستعملة لمواضيعها •

ومن أشهر هذه الكتب « أدب الكاتب » لابي بكر الصولي (ت ٣٣٦) وقد ألفه «لأعلى الكتاب درجة وأقلهم فيه منزلة» ، وركز على ضبط الالفاظ والمعاملات المالية والفقهية •

وهذه الكتب هي فرع خاص من كتب الفت حسب المواضيـع ومـن أوائلها «الغريب المصنف» لابي عبيدة (ت٢٢٤)ووصلت اوجهـا في كتـاب «المخصص»لابن سيـده (ت ٤٥٨) ، الذي جمع الالفاظ العربـية حسـب مواضيعها واعتمد في مانقله على المعلومات التي دونها ابرز علماء اللـغة من سبقه .

كتابه دواوين الخراج :

لكتّاب الخراج وضع خاص متميز، فهم يتعاملون بالامور المالية ومايتصل بالارض خاصة ، ويسيرون وفق نظم وتقاليد استقرت عبر مدة طويلة مـن الزمن ، فعملهم يتطلب استعمال مفردات تتعلـق بنظـم الادارة ، والارض ، والمنتوجات وأعمال المساحة والهندسة والحساب ، فهي مفردات واسعة في نطاقها ، منوعة في ميادينها ، متصلة بمعرفة الناس وبما تتطلبه النظم من مخاطبة الحكام وولاة الامور .

ولابد ان نظم الجباية والادارة المالية كانت قائمـة في الارجـاء التي تحكمها دول في جزيرة العرب ، وانهم كانوا يستعملون التعـابير العربيـة السائدة في أراضي تلك الدول غير انه لم تصلنا معلومات مجزية عنها .

وفي القرآن الكريم تعابير عن السجلات وتنظيم الحسابات ، ومنـها «الكتاب» و«الصحف» و«الحساب» و«السجل» (١٦) ، وإشاراتالى بعض الضرائب ومنها «الخراج» و «الصدقة» و «الجزية» ؛ ويدل ترددها على كثرة استعمالها وخاصة في مكة التي عرف أهلها بنشاطهم التجـاري واتصـالهم بالاقاليم العربية وبعض الاقاليم الخارجة عن الجزيرة العربية ، غير انه ينبغي عدم المبالغة في سعة نطاقها وتنوع ميادينها .

(١٦) جمع توري هذه التعابير وحللها في كتابه «التعابير التجارية في القرآن» (بالانكليزية) .

ولما توسعت الدولة الاسلامية ضمت اقاليم واسعة كانت تابعةللساسانيين في المشرق وللروم في المغرب ، وكان اكثر الاقاليم تعقيداً في نظمها العراق والشام ومصر ، حيث كان في كل منها نظم ادارية ومالية استقرت عبر مدة من الزمن ، وكانت الهيئة الحاكمة في كل منها تختلف عن غالبية السكان في أصولها وثقافتها ولغتها ، وفي كل منها دواوين منظمة أوسعها ما يتصل بالجباية المالية ، وهي وثيقة الصلة بأهل البلاد لانها تتعامل معهم في الجباية والاتفاق ، غير أن واجبها الرئيس متصل بالهيئة الحاكمة ، ولذلك كانت تكتب وثائق معاملاتها باللغة التي يستعملها الحكام وهي الفارسية في العراق واليونانية في بلاد الشام ومصر ، وبالنظر لسعة أعمالهم وتعقدها ، وخبراتهم المستقرة ، فقد ابقاهم العرب ولم يعملوا على تبديل اساليب عملهم •

غير انه بعد استقرار الحكم ادرك العرب خطر استمرار الدواوين بالكتابة بغير العربية ، فهي تعيق متابعة ولاة الامور شؤون المالية التي هي من أهم أسس كيان الدولة ، وهي تعطل ايضا معاملات عامة السكان الذين لغتهم تخالف الكتّاب ، فضلا عن مكانة اللغة الاعجمية في الدواوين فيه انتقاص لمكانة العربية التي هي من أبرز مقومات الدولة •

ومما كان ييسر عملية التعريب ان غالبية كتاب الدواوين كانوا من أهل البلاد ولغتهم في الاصل غير الاعجمية التي كانوا يتعلمونها من اجل الحصول على العمل ، وقد افقدهم استقرار الدولة العربية الامل بعودة النظام القديم ، وسرت فيهم روح الثقة ببقاء الدولة الجديدة مما تقتضي مصلحتهم الخاصة ان يتكيفوا لها ويخدموها •

ولم يكن كتاب دواوين الخراج في العراق خاصة بعيدين عن العربية، فأكثرهم كانت لغة الام عندهم هي العربية أو وثيقة الصلة بالعربية التي هي لغة الهيئات الحاكمة والمقاتلة وكثير من التجار ، فليس من الصعب احلال مفرداتها محل معظم المفردات الاعجمية التي كانوا يستعملونها ، وتنسب عملية تعريب

الدواوين في العراق الى صالح بن عبدالرحمن ، ويروى الجهشياري في ذلـك انه لما ولى الحجاج العراق «كان يكتب له صالح بن عبدالرحمن ويكنى ابا الوليد ، وكان يتقلد ديوان الفارسية اذ ذاك زادان فـروخ فخلفـه عليـه صالح بن عبدالرحمن ، فخف على قلب الحجاج وخص به ، فقال لزادان فروخ اني قد خففت على قلب الحجاج ، ولست آمن ان ازيلك عن محلك لتقديمه اياي وانت رئيسي ، فقال زادان فروخ ، لاتفعل فانه احوج الي مني اليه،قال فكيف ذلك ، قال لايجد من يكفيه الحساب ، فقال صالح اني لو شئت حولته بالعربية ، قال فحوّل منه سطرا ، فحول منه شيئا كثيرا ، فقال زادان فروخ لاصحابه التمسوا مسكنا غير هذا ، وأمر الحجاج صالحا بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين (١٧) .

يظهر هذا النص ان صالح بن عبدالرحمن كانت له صلة وظيفية بديوان الخراج وانه كان يتقن العربية والفارسية ، وان كتابة الحسابات بالفارسـية كانت تلزم الولاة العرب بمراعاة ولاة الخراج الذين يستعملون الفارسية وان صالح بن عبدالرحمن لم يواجه صعوبة في نقل الحسابـات ومعاملاتهـا الى العربية ، وان ذلك تم في سنة ٧٨ .

لم يكن لتعريب الدواوين بالبساطة التي صورها الجهشياري فهي لم تكن مقصورة على العراق ، وانما امتدت الى بلاد الشام ايضا ، كما امتـدت الى تعريب النقود ، فهي جزء من سياسة شاملة ، ودوافعها واسعة تمتـد الى تعزيز مكانة اللغة العربية ، وتوثيق الوحدة الثقافية والفكرية ، وافساح مجال عمل أوسع للمعتزين بها ؛ واتاحة الفرصة للولاة في الاطلاع على تفـاصيل الادارة المالية .

أشار الجهشياري الى بعض نتائج التعريب فذكر ان « كان عامة كتّاب

(١٧) الوزراء والكتاب ٣٨ .

العراق تلامذة صالح بن عبدالرحمن ، فمنهم المغيرة بن ابي فروة ، كتب ليزيد ابن المهلب ، ومنهم قحذم بن ابي سليم وشيبة بن ايمن كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا امية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس ، كتب لخالد القسري ، وغيرهم »[١٨] .

ولابد ان هؤلاء حلوا محل من كان قبلهم من المتمسكين باللغة الفارسية، وانهم كانوا رؤوس أصحاب الديوان ، اما عامة الكتاب فقد بقوا في مكانهم يستعملون العربية في المكاتبات .

ومع ان معظم الكتّاب من أهل العراق وليسوا فرساً ، الا انهم ظلوا حريصين على الثقافة الفارسية دون العربية ، فقال الجاحظ ان احدهم اذا وطىء مقعد الرئاسة « وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه وروى لبرزجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ولعبدالحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه، صيّر مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته»[١٩] ثم ذكر طعنهم بالقرآن والصحابة والفقهاء التابعين وانه « لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والاثار عماده »[٢٠] .

ويتصل بهذا قول ابن قتيبةفيمقدمةكتابه «أدب الكاتب» «فابعدغايات كاتبنامنالشعر أبياتافيمدح قينة او وصفكأس، وأرفعدرجات لطيفنا انيطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لايعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله (ص) بالتكذيب وهو لايدري من نقله» ويقول «ولكنه طال عليه ان ينظر في علم الكتاب ، ومن اخبار الرسول (ص) وصحابته ومن علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون

(١٨) الكتاب والوزراء للجهشياري ٣٨ .
(١٩) في ذم اخلاق الكتاب ضمن رسائل الجاحظ ٢/١٩١ ــ ٢ .
(٢٠) كذلك ٢/١٩٤ .

وقل منه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم » .

ان هذين النصين يتفقان على صدوف الكتاب عن علوم القرآن والحديث، ويضيف ابن قتيبة صدوفهم عن علوم العرب ولغاتها وآدابها ، ويذكر الجاحظ أسماء الكتب التي كانت معينهم في الثقافة والفكر ، وكلها ما عدا مزدك ، منقولة الى العربية بلغة سليمة ليس فيها مفردات اعجمية كما ان ابن قتيبة يذكر عنايتهم في كتب الفلسفة مما له ترجمة « تروق بلا معنى ، واسم يهول بلاجسم » أي ان نشازهم قائم على أفكارهم وليس على اللغـة التي يستعملونهـا وهي العربية ، والواقع انه لم يعرف عن الشعوبيين فيما طعنوا به العرب ، انكارهم مكانة اللغة العربية ، وان كثيرا من غير العرب اسـهموا بسـعة في دراسـة مختلف المواضيع المتصلة باللغة العربية ، بما في ذلك المفردات وقواعد النحو والصرف ، ومظاهر البلاغة ، ولم تبدأ الكتابة بالفارسية الا في أواخر القرن الرابع الهجري ، وبدأت عند الشعراء والادباء وليس في الدواوين ، وكانت في ظل حكام كانوا يقرون بالاسلام والثقافة العربية وحرمة الخلافة العباسية .

كانت محاولة اتقان الكتّاب اللغة العربية من دوافع تأليف كتب لتيسير تعلم مفرداتها ولاتقان نحوها وصرفها وتلفظها ، وثبّت استعمال الكتاب العربية شيوع مفرداتها وتوسع معاني بعضها لتستعمل في المؤسسات الادارية والمالية، وكانت اكثر الكتب التي عدها الجاحظ من مقومات ثقافتهم مكتوبة بلغـة عربية سليمة .

غير ان الكتّاب ظلوا يستعملون في العـراق ، وربمـا في المشرق ، عددا من المفردات الفارسية ، وخاصة في تفاصيل معاملات سجلات الحسابات، وهذه التعابير عددها محدود ، وهي فنية خاصة بتلك المعاملات فلم يشـع استعمالها عند الناس .

ازدهـار دراسة العلـوم :

كانت شبه جزيرة العرب منوعة في شكل أرضها وتربتها ومظاهر مناخها، وفي منتوجاتها المعدنية والنباتية والحيوانية ، وكانت لكثير من أهلها صلات تجارية بالبلاد الاخرى وخاصة الاقاليم التي حولهم ، وقامت في عدة مناطق فيها ، وخاصة في اليمن وعمان والبحرين واليمامة ، حضارات تدل المعلومات القليلة التي وصلتنا عنها على تقدم واسع في الحياة المادية وما يتصل بها من زراعة وصناعة وتجارة ، وقد اثمر هذا ثروة يدل على مداها سعة المفردات التي دونها لغويو القرون الاولى رغم اقتصارهم على ماكان سائدا عند بعض قبائل الجزيرة ، وليس عن كل ما في الجزيرة ، وان قلة المعلومات التي وصلتنا عن التراث العلمي في الجزيرة مرجعه قلة الحفريات وطبيعة مادة الكتابة ، وهو ليس بأقل مما وصلنا عن معظم البلاد الاخرى .

ولايصح ان تتخذ قلة المادة التي وصلتنا عن المعرفة بالعلوم على جهلهم بها ، فقلة المدونات القديمة في الجزيرة عن الطب مثلا لايعني عدم معرفتهم التشخيص والعلاج الذي لايستغني عنه أي مجتمع . وقلة الكتب التي وصلتنا عن النبات والزراعة لايعني عدم معرفتهم بها ، ومثل هذا ينطبق على كثير من ميادين العلم ، وخاصة التطبيقية والمتصلة بحياة الناس . ولايبعد ان المعرفة الواسعة التي تدل عليها اللغة العربية في ما يتعلق بالعلوم ، رافقته أفكار وآراء عن تنظيم هذه المعرفة وتعليل اسبابها ونتائجها وآثارها .

وفي القرآن الكريم تعابير كثيرة وتعليلات واسعة عن كثير من مظاهر الكون وسلوك البشر والقواعد التي تحكم مسيرتها .

ازداد نشاط الحركة الفكرية منذ تولي العباسيين الخلافة خاصة، ورافق ذلك انتشار استعمال الكاغد مما يسر توسع تأليف الكتب ، ومما انمى هذا النشاط

تأسيس بغداد التي جمعت اعدادا كبيرة من أرجاء كثيرة ، وخاصة من الكوفة والبصرة وريف العراق ومناطق خراسان وما وراء النهر ، ورافق ذلك ازدهار الحياة الاقتصادية واستقرار الامن والسلام واهتمام الخلفاء العباسيين الأولين برعاية الحركة الفكرية وانمائها، وتتابع ازدهار معارف اللغةوالادبوالدراسات القرآنية والفقه التي كانت قد ظهرت منذ زمن الامويين .

وقد قدر العباسيون ان البناء الفكري السليم يستلزم ان يكون واسعا ليشمل العلوم الصرفة والتطبيقية التي عنى بدراستها علماء قدماء أجانب وألفوا فيها كتبا قيمة ، كما يشمل عددا من الكتب في الآداب والتقنيات ، وكان عدد من هذه المؤلفات بالهندية والسريانية والفارسية ، ولكن اكثرهـا واغناهـا باليونانية التي ضمت تراث الالف سنة التي سبقت الاسلام ، ونمت بفضل تشجيع الحكام واهتمام الناس فألفت فيها كتب قيمة وخاصـة في الفلـك والرياضيات والطب (٢١) .

أدرك الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور ، وهو مؤسس بغداد ، أهمية التراث العلمي لهذه الامم ،فعنى بتشجيع نقل كتبهالى العربيةلتكون مكملة للبناء الفكري في الدولة والامة . وقد بدأ في زمنه نقل كتب في عدد مـن ميادين العلم وخاصة الفلك (المجسطي والسند هنـد) والطب والفلسـفة ، وتتابع نشاط النقل في هذه المواضيع ومواضيع اخرى ، ووصلت أوجهـا في القرن الثالث الهجري .

وكان اكثر نقلةكتب العلوم من نصارى العراق والجزيرةالفراتية وبلادالشام، وقدحدثتفيأساليب النقل تطورات، فكان اكثر أوائلها نقلا حرفيا دون مراعاة لاسلوبالكتابةالعربية، وفيها كثير من الكلمات الاعجمية، ثم تطورت فاصبحت تعرض مادتها باسلوب عربي مقبول، وتناقص عددالكلماتالاعجمية، فاستعملت

(٢١) انظر عن تقدير مكانتها كتابنا «تاريخ العلم في العهود الاسلامية الاولى» .

مكانها كلمات عربية أصيلة ، وهي تظهر اتقان النقلة واكثرهم نصارى ، اساليب الكتابة العربية وسعة ثروتهم في المفردات العربية ، وتثير التساؤل عن الاساليب التي كانت متبعة في ضمان اتقانهم العربية وكان ثمارها هذا التمثيل للاسلوب، وهذه الثروة اللغوية الواسعة . ولابد انهم أفادوا كثيرا من المفردات التي جمعها المعنيون بلغة أهل البادية ، وخاصة في التشريح والحيوان والنبات والاحجار .

عززت كتب العلم المنقولة الى العربية كثيرا من مفردات العربية المستعملة في تلك الميادين ، ووسعت نطاق نشرها ، واضفت على بعضها معاني جديدة ، فلم تعد المفردات في خلق الانسان والحيوان والنبات مقصورة على دارسي كتب اللغة ، وانما امتدت الى المعنيين بالطب بما فيه التشخيص والعلاج والأدوية واستعملت كتب البيطرة المنقولة الى العربية المفردات التي جمعها اللغويون عن الحيوان ، وأفادت الفلسفة من مفردات القرآن الكريم فاستعملت كثيرا منها واضفت على بعضها معاني جديدة مثل الكون ، والفساد والكيفية ، والكمية ، والزمان ، والدليل ، والقياس ، والبرهان ، والجوهر ، والعرض ، والكلمة ، والروح ، والنفس .

ومما أفاد في انماء مفردات اللغة العربية وتيسيرها لمتطلبات الكتابة في العلوم تعدد صيغ تصريفها ومرونتها وقابليتها على سعة الاشتقاق ، ونمو دراسات النحو والتصريف ، واستنباط القواعد التي توضحها وتيسر توسيعها.

ولم تقدم المصادر معلومات توضح الصلة بين « علماء اللغة » والنقلة والمؤلفين ، وهل ان علماء اللغة ادركوا حاجات هؤلاء الكتاب فبحثوا في مايسر عملهم ، أم ان النقلة درسوا كتب علماء اللغة وأفادوا منها ، أم ان هذه الصلات جاءت عفوية، خاصة واننا نلاحظ ان كلا من اللغويين والنقلة ومؤلفي كتب العلم لم يشر الى الاخر او الى التعابير التي يستعملها الطرف الاخر ، واذا كانت بين اللغويين وبين النقلة والمؤلفين صلات ، فما مداها وامتدادها ،

وهل اقتصرت على مرحلة التعليم الاولى ام امتدت الى المراحل المتقدمة التي يتم فيها التأليف والانتاج .

كان بعض النقل في مراحله الاولى حرفيا « فجا » أطلق عليه ابن النديم نعت « عفطي » تكثر فيه الكلمات الاعجمية مثل انـا لوطيقـا وسـوفسطيقا وارثماطيقي وابيديميا (٢٢) ، كما ان اسلوب الكتابة يتابع اسلوب كتابة ماينقل عنه ، وهو مخالف للأسلوب المألوف بالعربية، ويكون فهمه مغلقا على القاريء العربي . وهذا يدل على ضعف معرفة النقلة الاولين اللغة وضعف اتقـانهم تركيب كلامها وأساليبها (٢٣) .

غير ان النقل لم يلبث ان تطور ليصبح أقرب ملاءمة للعربية بمفرداتهـا واساليبها ، فوضعت كلمات عربية لكثير من الكلمات التي وضعها النقلةالاولون بصيغتها الاعجمية ، فوضـع الحساب مكان الارتماطيقي ، والقياس مـكان الانالوطيقي ، والوباء مكان ابيديميا .

ولجأ النقلة الى هضم معنى ماينقلونه وصياغته باسلوب عربي قـد يخالف حرفية النص الاصلي ولكنه لايخرج عن معناه ، ولقيت هذه النقول رواجا ، وكان ابرز متقنيها حنين بن اسحاق وهو حيري الاصـل ، درس في جنديسابور الطب على يد بعض السريا ن، والعربية في البصرة على يد الخليل ابن احمد ابرز علماء العربية وواضع اول معجم عربي ، ثم درس اليونانية في الاسكندرية ومكنته مواهبه من استيعاب هذه العناصر ، وادرك حاجات اهل عصره وتذوقهم اسلوب الكتابة ، فكانت ترجماته انموذجا مقبولا تابعه من

(٢٢) انظر « فن الترجمة في الادب العربي » لمحمد عبدالغني حسن « في فنون الترجمة » لوديع قسطنطين ، المنشور في مجلة المجمع العلمي في دمشق ٤٥/٣ ، ١٩٧٠ «دراسات في تاريخ الترجمة» لبول كراوس. مجلة كلية الاداب بالقاهرة ٥ ــ ١٩٣٩/١ . « ضحى الاسلام» لاحمد امين، « حركة الترجمة في المشرق الاسلامي» رشيد الجميلي .

(٢٣) انظر : الحيوان للجاحظ ٧٥/١ .

تلاه ، وجعل الكتب المنقولة منسجمة في مفرداتها وأساليب عرضها مع كتب ميادين الفكر الاخرى ، ولا تتوفر معلومات كالتي عن حنين تتصل بنشأة النقلة واعدادهم الثقافي وأحوال اتقانهم العربية والاغريقية .

ذكرنا ان النقلة تظهر كتبهم انهم اتقنوا معرفة مفردات العربية وتركيب جملها واسلوبها ، وانهم حرصوا على ان يكون ما ينتجوه منسجما مع الهيكل الفكري العام في ذلك ، غير انهم اسبغوا معاني جديدة على كثير من المفردات العربية لتنسجم مع الافكار الجديدة في هذه العلوم .

وكان لابد من ابقاء عدد من الكلمات التي لا مقابل لها بالعربية ومن ذلك اسماء عدد من الاماكن واحجار والنبات ، وقد حافظوا على شكلها واصواتها ، وحرفوابعضها لتنسجم مع جرس الالفاظ العربية ، وكان مصدرهم الرئيسي كتاب ديسقوريدس وكتب جالينوس خاصة والتي يحتوي كل كتاب منها أسماء نباتات واحجار في أقاليم اصبحت من ضمن الدولة الاسلامية مما يسر على النقلة ضبط اسمائها ومعرفة ماكانت تسمى به في العربية اذا كانت فيه ، غير ان الدراسة المدققة التي عرضها ابراهيم بن مراد في كتابه القيم « المصطلح الاعجمي » تظهر ان نقلة الكتب ومن اخذ عنهم لم يكونوا دقيقين دائما في ضبط الاسماء الاعجمية للادوية والنبات او تعريف ماهيتها ، ومع هذا فقد بقيت تتناقلها الكتب المختصة دون ان تثير معارضة حتى اشد المعتزين بالعربية والمؤمنين بأهمية التعريب ، والواقع ان هذه المفردات قليلة العدد اذا قورنت بالثروة الضخمة من المفردات العربية وهي في ميادين فكرية خاصة محدودة الانتشار ، وقد ابقتها الضرورة دون تعمد التشويه .

رتب كثير من نقلة العلوم والمؤلفين فيها معلوماتهم وفق تنظيمات خاصة تسبغ على كتبهم سمة المعجمية ، غير انهم كثيرا ما أوردوا في بحث كل مادة تعابير غير قليلة تتعلق بتلك المادة ولا ترادفها .

وقد عنى عدد من المعاصرين بجرد المفردات « العلمية الواردة في الكتب

العربية القديمة ، وأفردوها ضمائم لما نشره من هذه الكتب ؛ وهي مادة قيمة تساعد على تحديد مستعمليها وزمن استعمالها ، وان كان كثير منها عام في كتب ميـدان العلم الذي تبحثـه • وكثير من هذه القوائم متفرق يتطلب التوحيد والتنسيق» •

وقد ازدادت العناية بجرد المفردات العلمية في الكتب التراثية على أثر الاهتمام الكبير في تعريب العلوم الحديثة ؛ فنشطت مؤسسات وأفراد لمتابعتها، وصدرت قوائم كبيرة ، ومعجمات كثيرة في عدد مـن ميـادين العلـوم الحديثة ، وأوردوا فيها كثيرا من التعابير « القديمة » واكملوه بما أضـافوه فيها ؛ وكادت كثرتها تجعلها مربكة فضلا عما في بعضها مـن اختلافات ؛ وهذا يدعو الى الحاجة لجرد شامل لما تم انجازه ، وتنسيقه بمجموعات موحدة ، ولابد ان التطور التقني المعاصر واستعمال الحسابات يساعد على تيسير هـذا العمل وتحقيقـه •



* * *